مؤسسة الآباء البيض: الفضاء الديني والاقتراب المجتمعي.
ملامسة سوسيو- تاريخية بمنطقة غرداية

د/ خواجة عبد العزيز أ/ داود عمر
المركز الجامعي غرداية

تمهيد:

لعبت الجمعيات التبشيرية المسيحية دورًا كبيرًا في نشر معتقداتها في الجزائر وإفريقيا، وتشير المصادر التاريخية إلى تواجدها المنظم في الجزائر منذ الفترة العثمانية، أخذت محاولاتها التبشيرية بادئ الأمر الصبغة السلمية،وبازدياد حضورها الديني والاجتماعي كثافةً حينما رافقت الجيوش الفرنسية، وشروعها في بناء الكنائس، والمرافق الاجتماعية والتربوية والصحية المختلفة بُغية إحياء الكنيسة الإفريقية الرومانية بالجزائر، غيرت من شكل ممارساتها المسالمة إلى أشكالٍ عنيفة مرتبطة بالمسالة الدينية، عندما تدخلت في شؤون الأوقاف، ما ساهم في غلق المدارس والزوايا، واستولت على بعض الأملاك الوقفية، وهدمت العديد من المساجد فحوّلتها إلى كنائس.

و قد تأرجح مركز اهتمامها بين الفضاء الديني ومحاولات اقتحام الفضاءات الاجتماعية، والتربوية المختلفة كالتعليم، والتمريض، ...للاندماج المجتمعي.

1 - الحركة التبشيرية في الجزائر: الأصول والجذور.

تُعد سنة 1602م بداية التقاطع المنظم للجمعيات التبشيرية بالجزائر، في اللحظة التي توافد فيها مبشرو جمعية "آباء دولامرسي"

Les pères de la merci، بُغية نشر تعاليم الإنجيل وسط السكان، وتأسيس جمعيات مسيحية وبناء معابد، فاستمر بعد ذلك تدفق جمعيات أخرى كاللازاريين Les Lazaristes، بقيادة "سان فانسان دي بول" St Vincent De Paul، الذين استحوذوا على إدارة الكنيسة الإفريقية، التي فرضت سلطتها على أغلب الجمعيات المسيحية الأخرى، ونظمت العمل التبشيري في الجزائر حتى بلغ عدد الرهبان بالجزائر ستين (60) راهبًا في سنة 1681م، ثم تتضاعف هذا العدد بتزايد الجمعيات والرهبان المسحيين بحجة افتداء الأسرى الأوروبيين وتقديم المساعدات الإنسانية لهم، حيث كان يحتجزهم الأسطول العثماني حينها، إلى غاية سنة 1827م عندما تعطل عمل نيابة أسقفية الجزائر بسبب تردي العلاقة بين فرنسا والجزائر (شارل روبار اجيرون، 2002: 24- 46).

وبعد احتلال فرنسا للجزائر اشتد تنافس الجمعيات التبشيرية على الفضاء الديني بالجزائر، فبرزت للوجود جمعيات كثيرة منها: جمعية الآباء اليسوعيين "les jésuites"، وأخوات القديس جوزيف دي لابريسيون "Les Sœurs du St Joseph Delaprition"، والراهبات الثالوثيات "les Religieuses trinitaires"، وأخوات العقيدة المسيحية "Les Sœurs de la Doctrine Chrétienne"، وراهبات القلب المقدس "les religieuses du Sacré Cœur"، وجمعية الترابيست: "Les trappistes"، وجمعية إخوان القديس جوزيف دي مانس "Les Frères de St Joseph Du Mans"، وجمعية أخوات القديس فانسان دي بول "Sœurs de St Vincent De Paul" (خديجة بقطاش، 1992).

وفي سنة 1867م تمَّ تعين الأب شارل ألمان لافيجري Charles Allemand Lavigerie على رأس أسقفية الجزائر، فاستأنف نشاطه بإنشاء جمعية المرسلين إلى إفريقياSociété Des Missionnaires d'Afrique، أو ما يُطلق عليها "الآباء البيض" Les Pères Blancs، وهم أعضاء تلك الجمعية الإرسالية الكاثوليكية التبشيرية، المسماة "مرسلي الجزائر"، قبل أن تتحول إلى "جمعية مرسلي إفريقيا" Société Des Missionnaires d'Afrique.

و نظرًا لالتزام أعضاء هذه الجمعية ارتداء الثوب الأبيض، انسجامًا مع الزي التقليدي الجزائري الذي كان منتشرًا لدى قاطني شمال إفريقيا، أُطلق عليهم تسمية "الآباء البيض" Les Pères Blancs، ويتألف لباسهم من عباءة بيضاء وسبحة طويلة تحيط بالرقبة يتدلى من طرفها صليب يقع فوق الصدر.

وبُغية التوغل أكثر في المجتمع الجزائري، ضمَّ لافيجري Lavigerie الأخوات البيض Les Sœurs Blanches إلى هذه الجمعية في سنة 1869م، لذا عند الحديث عن الآباء البيض، فإننا الموضوع يضم الآباء والأخوات معًا.

وتتخذ هذه الجمعية شعار لها: "البحث عن الله في خدمة الآخرين"، ويتعهد أعضاؤها بأن يكونوا بمثابة آباء وإخوة للآخرين، كما يسعون للالتزام بالحياة البسيطة القريبة من حياة الناس العاديين لأنها تقربهم إلى الرب (أسعد سكاف، 2007: 10).

2 - الآباء البيض بغرداية: الكرونولوجيا والنشاط

2 -1 المرحلة الأولى: محاولات الاستقرار.

تذكر إحدى الأخوات البيض في مذكراتها أنّ أولى محاولات التواجد المسيحي بغرداية يعود إلى سنة 1852م (La chronique des sœurs missionnaire ,1922:207)، ولم يكن من السهل على الآباء البيض

الاستقرار بهذه المنطقة، فقد تعددت محاولاتهم، فاستغرقت مدة إثنى عشرة سنة من 1872م إلى 1884م، وبعد مجهودات معتبرة استطاعوا سنة 1872م إقناع أحد السكان بأن يبيع لهم منزله القديم وقطعة الأرض المجاورة له في أسفل مدينة مليكة (إحدى مدن مزاب السبع)، وبمجرد انتشار الخبر عمت الاحتجاجات وسط السكان المزابيين، ممّا جعل صاحب الأرض والمنزل يتراجع ويُلغي صفقة البيع مع الآباء البيض، فاستمرت المحاولات إلى أن تمّ شراء منزلٍ وسط مدينة متليلي سنة 1874م (تبعد بحوالي 34كم جنوب مدينة غرداية)، من طرف الآباء : "بول بوليي"P.Plaumier، و"بيير بوشن" P.Bouchand ، و"فيليب مينوري"F.Menoret.

وبمجرد وصولهم قاموا بجعل المنزل مركزًا لهم ولنشاطاتهم، غير الأمر لم يستمر طويلاً، فقد قتلوا جميعًا يوم 25 جانفي 1876م، بين مدينتي المنيعة وعين صالح (F. Renault, 1825-1892:240) ، فأُغلق المركز شهر فيفري سنة 1878م، وفي سنة 1883م أعاد الآباء "فيليكس مالفري" F.Malfreyt و"شارل كيرمابون" C.Kermabon فتح مركز الآباء البيض بمتليلي، وبعد مرور سنة واحدة، استأجروا منزلاً متواضعًا لليهودي إسحاق بن داوود مقابل 250 فرنك فرنسي سنويًا (وهو مبلغ جد معتبر حينها) بالحي اليهودي وسط مدينة غرداية سنة 1884م، فقاموا مع البنّاء الفرنسي بابتيست Baptiste بترميم المنزل دون أن يغادروه (Dahbia Abrous, 2007:88).

وفي يوم 27 ديسمبر سنة 1892م، وصلت الأخوات البيض إلى غرداية، منهن: الأخت جوزفين Josephine، والأخوات لوويز Louise،

وسان لوك Saint Luc، وكلوتيد Clauthide،وسكنَّ منزلاً صغيرًا يسمى بدار "مولاي" بحي العفافرة الذي يبعد بحوالي كلومترين عن مدينة غرداية، ريثما يجدن مقرًا أنسب (وثيقة مرقونة، شهادة الأخت جوزيفين).

2 -2 المرحلة الثانية: اقتحام الفضاءات الاجتماعية والاقتراب المجتمعي.

قدمت الأخوات البيض إلى منطقة غرداية، بُغية اقتحام الفضاء النسوي للمجتمع، وبعد أيام قليلة فقط من قدومهن، جمعن بضع فتيات، وبدأن في إنجاز مشغل للخياطة يوم 21 جانفي 1893(وثيقة مرقونة، شهادة الأخت جوزيفين).

فوجدن صعوبات جمّة في توسيع المجال المكاني لنشاطهن بادئ الأمر، إذ تصدت لهن بعض النساء الداعيات منهن "لالة نسليمان" التي منعت التعامل مع الأخوات البيض، وقد قالت عنها إحدى الأخوات في مذكرتها: «لقد كانت لالة نسليمان امرأةً مثقفةً لا تغادر الكتب العربية يديها، بالرغم من كون القراءة والكتابة شبه منعدمة عند المرأة المزابية، لقد كانت ترتدي ملابس بسيطة جدًا، إلاّ أنها تملك أسلوبًا جذّابًا جعلها تستقطب الفتيات والنساء على حدٍ سواء» (Dahbia Abrous, 2007:91).

لم تقتصر محاولات اقتحام الفضاءات الاجتماعية على الأخوات دون الآباء البيض، إذ بمجرد استقرار هؤلاء بالمنطقة حتى سارعوا إلى تأسيس أول مدرسة لهم، رغم معارضة السلطات العسكرية الفرنسية، وعلماء المنطقة وأعيانها، إلاَّ أنَّ تلك المدرسة استطاعت أن تستقبل في بداية سنتها الأولى15 تلميذًا، ثم وصل العدد إلى 24 تلميذًا، أغلبهم من

اليهود والعرب، ممَّا جعل السلطات الفرنسية تفتح مدرسةً موازيةً بأعالي مدينة غرداية سنة 1885م، ثم أصدر الحاكم العسكري الفرنسي أمرًا بإجبارية التعليم، بعد رفض بعض العائلات تعليم أبنائهم بكلتا المدرستين، ولجأت بعض العائلات الميزابية إلى دفع ما بين 40 و45 فرنكًا فرنسيًا لأطفال من السود واليهود، وغيرهم للذهاب إلى المدرسة، بدلاً عن أبنائها (Dahbia Abrous, 2007:95).

لم يقتصر طابع المقاومة على رفض الالتحاق بمدارس الآباء البيض والتعامل مع الأخوات البيض فحسب، بل تجرأ بعض الشباب المزابيين إلى إلقاء زجاجات حارقة على المنازل التي كانت تسكنها الأخوات البيض، إلاّ أنَّ السلطات العسكرية الفرنسية تعاملت بصرامة اتجاه الشباب، بتحميل العشائر والضمّان مسؤولية ذلك.

فشعر الآباء البيض بالأمن مما مكّنهم من تكثيف نشاطاتهم، والتغلغل في الأوساط السكانيه، من خلال مؤسسات المدرسة والمستوصف ومراكز التكوين المهني للذكور والإناث، إضافة إلى الأعمال الخيرية والزيارات المتكررة للسكان البدو الرحل.

وبعد توسع نشاط الآباء والأخوات في مجال التعليم عند كلا الجنسين، انخفضت حدة الرفض الاجتماعي لتواجدهم بالمنطقة، فقد قام الأب "دافيد" David بكراء ثم شراء منزل للسيد كركاشة سنة 1902م، ولم تمر سنة على ذلك حتى اشترى الآباء البيض أيضًا قطعة أرض كبيرة بـ"تيضفت"، ثم اقتنوا المنازل المجاورة لها، والتي كانت ملك السادة: بن جلول، وبوعروة، ومركوتي، فهدموا تلك المنازل القديمة، لتشييد بناءات جديدة محلها، وتولى الآباء البيض العمل بأنفسهم، دون أن

يثير ذلك السكان كما كان يحدث بادئ الأمر، وممّا أورده النوري: «أن كنيسة غرداية بنيت سنة 1904م في منزل يقع في بساتين غرداية» (محمود عيسى النوري، 1984: 134).

عرفت مدرسة الآباء البيض خلافات ومناوشات كثيرة بين التلاميذ اليهود والمزابيين، ما اضطر الآباء البيض إلى نقل مقر المدرسة إلى حي باب الراعي بوسط المدينة سنة 1887م، ثم نُقل بعد ذلك مقر الآباء البيض نهائيًا من الحي اليهودي في أفريل 1904م، إلى حي الحفرة بوسط المدينة.

أ) مدرسة التعليم العام:*

لقد كانت انطلاقة عملية التعليم في سنواته الأولى صعبةً، إذ رفض الكثير من سكان غرداية تعليم أبنائهم عند الآباء البيض، واعتبرت الهيئات العرفية المحلية لمزاب كل من يتردد على المدرسة أو يرسل أبناءه إليها منبوذا (Michel Le Long, 1945:40)، أمَّا من حيث تجهيز الأقسام، فلم تكن الوسائل البيداغوجية متوفرة لدى الآباء، نظرًا لمعارضة السلطات الفرنسية التعليم بهذه المدرسة، وقد بلغ عدد التلاميذ سنة 1885م حوالي 30 تلميذًا، ثم ارتفع عدد المسجلين عشر سنوات بعد ذلك ليبلغ حوالي 91 مسجلاً، إلاَّ أنَّ معدل الذين كانوا يواظبون يوميًا على الحضور لم يتجاوز 66 تلميذًا.

وفي سنة 1897م تقلص عدد التلاميذ إلى 30 تلميذًا، بسبب طرد عدد كبير من التلاميذ نتيجة تلك المناوشات بين التلاميذ اليهود والميزابيين بالمدرسة. وبعد انتقال مقر المدرسة من حي اليهود سنة 1904م،

إلى حي باب الراعي، تمَّ تسجيل حضور عدد معتبر من التلاميذ الميزابيين، مقابل تراجع عدد التلاميذ اليهود.

ومن سنة 1904م إلى 1922م انخفض معدل حضور التلاميذ بسبب الحرب العالمية الأولى، ففي سنة 1914م بلغ معدل التلاميذ المواظبين على الحضور يوميًا 46 تلميذًا، كما خصص الآباء البيض دروسًا مسائية لتعلم اللغة الفرنسية سنة 1905م، والجدول التالي يبين أعداد التلاميذ الملتحقين بهذه المدرسة.

الجدول رقم (1):عدد التلاميذ بمدرسة الآباء البيض بين سنة 1884 إلى 1950. (أرشيف مركز الوثائق الصحراوية، غير مصنف)

التواريخ	عدد التلاميذ
23 جانفي 1884	15
24 جانفي 1885	من 20 إلى 30
مارس 1890	50
ديسمبر 1890	69
ديسمبر 1892	من 90 إلى100
1897	30
1900	40
1904- 1922	190
1934- أكتوبر 1942	316
1942- 1943	136
1944- أكتوبر 1946	116
1950	300

وقد تمّ تسجيل ارتفاع عدد المتمدرسين بالمدرسة سنوات الثلاثينات بعد أن وظف الآباء البيض معلمين جزائريين مثل: قندافة سالم الذي عمل بالمدرسة من سنة 1919م إلى غاية سنة 1945م، والطيب زاي بين سنتي 1929م، و1947م، وعدون محمد في الفترة الممتدة من 1933م إلى غاية 1944م، وقد بلغ عدد المعلمين الجزائريين بمدرسة الآباء البيض من سنة 1919م إلى 1945م نحو 6 معلمين، وبداية من سنة 1946م إلى 1962م ارتفع وأصبح عددهم 14 معلمًا، وواصل عددهم في الارتفاع بعد الاستقلال حيث بلغ عددهم 27 معلمًا عند تأميم التعليم سنة 1976م. وقد أُطلق عليهم تسمية "المعلمين اللائكيين"، والمقصود باللائكيين، الذين لا ينتمون إلى جمعية الآباء البيض، لكنهم في خدمة البعثة سواء في مجال التعليم، أو في الخدمات الاجتماعية الأخرى، كما عمل بعضهم في المناصب الإدارية، وقد بلغ عدد الجزائريين في الميدان التعليمي أكثر من 40 معلمًا منذ نشأة المدرسة(أرشيف مركز الوثائق الصحراوية، غير مصنف).

ويعتبر المعلم غناي عمر من المعلمين الذين قضوا أطول مدة بمدرسة الآباء البيض، إذ بدأ التدريس سنة 1944م إلى غاية 1976م (مقابلة مع ابنه غناي يحيى).

أمَّا بالنسبة للبرامج التعليمية التي كانت تُدرس بالمدرسة، فقد تمثلت في تعليم اللغة الفرنسية، والحساب، والتاريخ، والجغرافيا، إضافةً إلى بعض قواعد اللغة العربية، ويتحصل الطالب في النهاية على الشهادة الأهلية الابتدائية (مقابلة مع أسقف الأغواط).

ب) مدارس التعليم المهني:

لقد أسس الآباء البيض نوعين من مدارس التعليم المهني، الأولى موجهًا للذكور، والثانية للإناث، واهتمت الأخوات البيض بالبنات، إذ فتحهن لهن ورشة لتعليم النسيج والخياطة والطرز إلى جانب تعليمهن التدابير المنزلية، وتلقينهن دروسًا في اللغة الفرنسية سنة 1893م، كما تم إنشاء ورشة أخرى بغرداية سنة 1928م، موجهة للفتيات اللواتي لم يستطعن التوجه إلى المدرسة، ولم تقتصر مهمة الأخوات البيض في التعليم فحسب، بل قمنا بربط علاقات "طيبة" مع النساء ببلدة غرداية وضواحيها من خلال القيام بزيارات لمنازلهن، وكان يرحب بهن، ويتبادلن الحديث مع النساء، ويبحثن عن انشغالاتهن اليومية.

أما بالنسبة للتعليم المهني الموجه للذكور، فقد أنشأ الآباء البيض في البدايات الأولى ورشةً لتعليم النقش على النحاس وصناعة الجلود والحدادة، وأسس الأب Robin ورشة لصناعة الخزف بالمنيعة سنة 1914م (Josphe Cuoq, 1986:215)، كما قدّمت هذه الورشات دروسًا في التربية الروحية، يقول الأب Nouet: «وإن المعامل والورشات هي المكان المناسب للتعليم، وتزويد التلاميذ بالأفكار المسيحية، وتشكيكهم في دينهم الإسلامي، ثم تركهم بعد ذلك، ليبحثوا عن الحقيقة المسيحية.» (Michel Gagnon, 2000: 21)

كما أسسوا مركزًا لما قبل التمهين في أواخر الخمسينات، يسمح للتلاميذ الراسبين، والذين لم ينتقلوا إلى الطور المتوسط بالتكوين لمدة سنتين، ويتضمن التكوين دعمًا في اللغة العربية واللغة الفرنسية والعلوم الطبيعية والرسم، إضافة إلى تعليمهم بعض حرف اليدوية كالنجارة

والحدادة والصناعة الإلكترونية، وعند نهاية التكوين يقوم الطالب بامتحان يسمح له بالانتقال، وتوجيه إلى مراكز التكوين المهني المتخصصة لمتابعة التكوين لمدة 3 سنوات، وتقدم له شهادة دولة من طرف وزارة التكوين المهني، ولعل الجدول التالي يوضح تزايد عدد الأقسام والتلاميذ المنتسبين لهذه المدارس.

الجدول رقم (2) : مدارس الآباء البيض بغرداية سنة 1956 (سعيد يوسف بن بكير، 2006: 284)

نوع المدارس	عدد الأقسام	عدد التلاميذ
مدرسة الآباء البيض	6	259
مدرسة الأخوات البيض (تعليم عام)	4	110
مدرسة الأخوات البيض (تعليم مهني)	3	66

كما قام الآباء البيض بإنشاء إكمالية بغرداية سنة 1957م، مكنت المئات من الشباب ذكورًا وإناثا من تلقي تكوينٍ تقنيٍ وأخلاقيٍ (Josphe Cuoq, 1986:217)، ولا تتوفر لدينا إحصائيات عن الطلبة بهذه الإكمالية.

ج) <u>التطبيب أو التمريض</u>:

اهتم الآباء والأخوات البيض بالتمريض، عملاً بتوصيات مؤسس جمعيتهم لافيجري Lavigerie لما لهذه الوسيلة من دور هام في استمالة "قلوب" المرضى، والتأثير على النساء بالخدمات الخيرية، فكانوا يعملون في عيادات التمريض والمستوصفات والمستشفيات، إذ تمَّ إنشاء أول مستوصف في غرداية بالحي الجديد وآخر بباب الراعي، تديره الأخوات ثم مستشفى "Saint Madeleine" بحي "تيضفت" (المقر السكني الحالي للآباء البيض)، كما كانوا يعملون بالمستشفى المدني الأهلي الذي أُنشئ سنة 1896م، الذي كان يستقبل وبالاتفاق مع السلطات الفرنسية الأهالي والعسكريين والمدنيين الأوروبيين على السواء. (سعيد يوسف بن بكير، 2006: 195)

في بداية الأمر، رفض السكان المزابيون الأدوية والعلاج المقدم من قبل الآباء والأخوات البيض، باعتبارهم غير مسلمين ولا يجوز التعامل معهم، وأنَّ الأدوية لا تملك القدرة على الشفاء، لأنّ القدرة على ذلك لله فقط، وأنَّ هذه الأخيرة تجلب لهم العار (Dahbia Abrous, 2007:94)، أمَّا بالنسبة لقبيلة بني مرزوق والمذابيح فلم يكونوا من الرافضين للعلاج، إلاَّ أن فكرة الرفض تغيرت بمرور الزمن، وأصبح السكان يرتادون هذه المستشفيات.

د) <u>الكشافة</u>:

تُعد الكشافة من بين المؤسسات التربوية التي اهتم الآباء البيض بتأسيسها، فالتعاون مع الفرق المحلية تمَّ تأسيس فرق الكشافة بمناطق مختلفة من الجزائر تضم عددًا من المسلمين واليهود والمسيحيين، وكانت بداية تأسيس الكشافة بغرداية في مدينة المنيعة على يد الأبDuvollet،

ثم تابع الأب Jean Le Vacher الإشراف على الكشافة بغرداية سنة 1954 (Michel Gagnon, 2000: 76)، وقامت هذه المؤسسة بتنظيم رحلات ومخيمات صيفية إلى كل من المنيعة ومتليلي وزلفانة وإلى مناطق مختلفة من الجزائر، كما اعتمدت في نشاطها على شباب المنطقة.

إلاّ أنه وجدوا صعوبات في تكوين المؤطرين التربويين لفرق الكشافة، ولا تتوفر لدينا إحصائيات عن الكشافة بمدينة غرداية.

ه) المركز الثقافي للوثائق الصحراوية بغرداية:

تعود نشأة المركز إلى سنة 1946م على يد مؤسسه الأب Jean Lethielleux (Josphe Cuoq, 1986:141)، الذي قام بجمع الكتابات التي تركها الآباء البيض السابقون، يتوجد بالمركز إضافةً لذلك العديد من الوثائق والكتب الثمينة وتقارير تضم بعض الملاحظات النفسية والاجتماعية، دوّنها بعض الآباء والأخوات البيض عن مناطق جزائرية، أغلبها يتعلق بالمناطق الصحراوية.

وقد تعاقب على تسيير المركز عدة آباء بيض، ساهموا جميعًا في إنشائه، وذلك بتجميع الوثائق وتصنيفها وكتابة التقارير المختلفة وتأليف الكتب، نذكر منهم:Roman Stager، David Bond، Jean Delheure، Diego Sarrio، Jean Le Vacher، Philippe Thirier، Marcel Chiron، ويشرف على المركز حاليًا الأب Krzysztof Stolarski، ويسمى مشرفً عامًا.

ويحوي المركز أيضًا مؤلفات كثيرة للآباء البيض في مجالات متعددة، إذ ألّف مثلاً الأب Delheure معجمًا للغة الميزابية، والأب

David Louis والأب Pierre Cuperly كتبًا حول المذهب الإباضي...الخ.

2 -3 المرحلة الثالثة: محاولات التأثير الديني.

يرى النوري أنّ ما كان يقوم به الآباء والأخوات البيض في مزاب من أعمال لا يتجاوز في عمومه حدود العمل الخيري الإنساني، إذ أنهم لا يتطرقون لموضوع التبشير إلاّ عرضًا في بعض دروسهم(محمود عيسى النوري،1984: 134)، وما كان يميز مدرسة الآباء البيض، عن المدرسة الرسمية الفرنسية، هو طبيعة التسيير والتدريس، إذ أنّ مسيروها من رجال الدين يتولون ذلك، كما أنها لم تكون تسعى لمحو الانتماء الديني من أذهان التلاميذ، على غرار المدرسة الفرنسية اللائكية في تعليمها، إلاَّ أنَّ العملية التعليمية في مدرسة الآباء البيض لم تخلوا من الطابع التبشيري المسيحي، فقد الآباء البيض يقدمون دروسًا في التربية الروحية المسيحية، وهو ما كان يسمى بـ: "les leçons de morale"، تتضمن تعليم القيم كإتقان العمل، والصبر، والتسامح، اعتمادًا على تعاليم الإنجيل، وقد عرف الأب Yves Alliaume بكتاباته عن التربية الروحية، خاصة تلك الموجهة إلى الأطفال.

يقول الأب بارمانتيي Henri Parmentier: «أنَّ ما كان يهم الآباء البيض ليس التكوين من أجل الحياة الاجتماعية وإنما تكوين الروح الدينية لدى الفرد شيئا فشيئا ثم تغيير طباعه.» (Le père Permantier, 1937:364)

وقد التزم الآباء البيض في غرداية بتوصيات "لافيجري"، في حين عارضها الأب "روبرتو فوكا" Roberto Foca(1887م- 1973م)

ولم يكن ملتزمًا بها، وكان له اطلاع واسع بالقرآن الكريم، فتورط في نقاش ديني، وجدل عقدي مع علماء وأعيان المنطقة، ممّا أغضب الآباء، فتمّ إرساله إلى لبنان.

وقد استقر الآباء البيض بمدينة المنيعة سنة 1892م، في منزل مأجور، وفتحوا مدرسة تقدم دروسًا في الفترة الصيفية أثناء تجمع البدو الرحل في الواحات وليتوزعوا بعد ذلك عبر الصحراء في فصل الشتاء، ثم بُنيت فيها كنيسة Saint Joseph سنة 1897م (Michel Gagnon, 2000: 10)، وتمَّ دفن الأب Charles de Foucauld بجانبها، إضافة إلى بناء ملجأ للأطفال اليتامى، كانوا قد تلقوا فيه تكوينًا دينيًا بين سنتي 1908م و1912م، حيث بلغ عددهم حينها 241 طفلاً، منهم 145 فتاتًا حسب الجدول التالي:

الجدول رقم (3) : عدد اليتامى بملجأ اليتامى بالمنيعة. (Michel Gagnon, 2000: 27)

السنة	عدد الأيتام
1921	33
1925	70
1932	28

نلاحظ من خلال هذا الجدول ارتفاع عدد اليتامى بملجأ المنيعة في سنة 1925م، وهذا يعود إلى أن السلطات الفرنسية طلبت من الآباء البيض

التكفل بأبناء العسكريين الفرنسيين ذوي الأمهات الجزائريات وقد تمَّ تكوينهم على الدين المسيحي.

كما شهدت مدينة المنيعة أكبر عدد من المنصرين، لتواجد ملجأ الأطفال اليتامى هناك، حيث كانوا في احتكاك دائم ومستمر مع الآباء والأخوات البيض، في حين لم يكن بمدينة غرداية ملجأ لليتامى.

2 -4 المرحلة الرابعة: البحث عن الفضاءات الاجتماعية الشاغرة.

تابعت المراكز التعليمية للآباء البيض نشاطاتها بعد الاستقلال، إلا أنَّ إصلاح التعليم وتأميم المراكز التربوية الخاصة وإلحاقها بالمؤسسات الرسمية، وإنشاء اللجنة الوطنية لإصلاح التعليم سنة 1969م (بن تركي رابح، 1986: 88)، انتهى بتأميم المراكز التعليمية للآباء البيض بالجزائر، وشمل ذلك تأميم مدرسة الآباء البيض والورشات والمستشفى ومركز ما قبل التمهين بغرداية في أفريل 1976م، وتمّ إلحاقها بالمؤسسات الرسمية، إلاَّ أنَّ الآباء البيض احتفظوا بالمناصب الإدارية لهذه المراكز التربوية، وقاموا بتكوين إطارات جزائريين.

لم يمنع هذا التأميم الآباء والأخوات البيض من مواصلة العمل في مجال التعليم بغرداية، فقد تابعوا عملهم بهذه المراكز التربوية، واشتغل بعضهم بتدريس اللغات الأجنبية بالمؤسسات الرسمية كالأب Raphaël Deillon، الذي درّس اللغة الانجليزية بثانوية مفدي زكرياء من سنة 1985م إلى غاية 1995م، والأب Claude Rault (أسقف الأغواط حاليا) الذي درّس اللغة الانجليزية بمدينة تقرت، واشتغل بورشة لصناعة النحاس بغرداية.

كما تم تأميم المراكز التربوية بالمنيعة، عدا المتحف، الذي يديره الأب René Le Clerc منذ الستينات إلى يومنا هذا. وحسب المقابلة التي أجريناها مع الأب Mikel Larburu يضم هذا المتحف وسائل، وأدوات قديمة، كان رجل الجنوب يستعملها للتأقلم مع بيئته الصحراوية، إلى جانب بعض الهياكل العظمية لحيوانات منقرضة، قام بجمعها الأبRené Leclerc، وكانت نواة المتحف في غرفة بإقامة الآباء البيض، ثم تحول إلى مقر تابع للبلدية. (مقابلة مع الأب لاربورو)

إضافة إلى الأعمال التي قامت بها الأخوات البيض، فقد سُجّل حضورهن بمدينة العطف من سنة 1974م إلى 1982م، أين درَّسن بالمدرسة الحرة، وقدّمن دروسًا في التدابير المنزلية والحرف اليدوية، إضافة إلى تدريسهن بالتعليم الرسمي، أما بمدينة بني يزقن فلم تكن مدة تواجد الأخوات البيض فيها طويلة مقارنة بمدينة العطف، فقد درسن بها لمدة سنتين فقط، وذلك من 1980م إلى 1982م، وبطلب من المشرفين على المدرسة الحرة بمدينة مليكة قدمت الأخوات البيض دروسًا في الخياطة والطرز ودروسًا في اللغة الفرنسية، وفقًا للمقابلة التي أجريناها مع الأخت Gertrude Christen المدرِّسة السابقة بتلك المدرسة، فقد قضت بها مدةً زمنيةً طويلة امتدت من سنة1975م، إلى مغادرة المدرسة مع رفيقاتها الأخريات سنة 1995م، نتيجة الظروف الأمنية، ولقد سألناه عن طبيعة التعليم الذي كانت تقدمه فأجابت أن الدروس كانت كلها باللغة الفرنسية وكانت تشمل تقنيات الخياطة والتفصيل والطرز واللغة الفرنسية والتدابير المنزلية، وعن المبادئ التي سعت إلى تكريسها في نفوس طالباتها، أعلمتنا الأخت Gertrude بأنها درّست فتيات بين سن

14 و18 سنة، وقد عملت بجد على تعليمهن حب العمل وإتقانه واكتشاف ذواتهن من خلال الإبداع، وعن سؤال حول ما إن كانت تتحدث للطالبات بالمدرسة الحرة، عن تعاليم الدين المسيحي، فأجابت أنها لم تقم بذلك، وأن هدفها كان تدريس ما كان مطلوبًا منها من قبل المشرفين على المدرسة فقط (مقابلة مع الأخت جارترید).

2 -5 المرحلة الخامسة: النشاط الحذر.

تتميز هذه المرحلة بالظروف الأمنية الجزائرية المتردية، وكان الآباء البيض من الفئات المستهدفة، فلم يقتصر الأمر على مجرد التهديد، فقد تعداه سنة 1995م عندما تعرض المركز الثقافي للوثائق الصحراوية لاعتداء أسفر عن جرح اثنين منهم، حين حاولا الفرار، ونظرًا للأسباب الأمنية المتردية، غادر الآباء البيض المنطقة، فأُغلق المركز إلى غاية 1998م، تمَّ أُعيد فتحه من جديد، مع تغيير في تسميته من مركز الوثائق الصحراوية "CDS"إلى المركز الثقافي للوثائق الصحراوية "CCDS"، وأصبح ينظّم نشاطات ثقافية من محاضرات ومعارض. (مقابلة مع الأب فيليكس) ومن بين تلك النشاطات الثقافية ما يلي:

أُقيم في سنة 2003م بالمركز معرض لصور فوتوغرافية لطلبة المركز القدامى، رفقة معلميهم الآباء البيض.

نظّم المركز بالتعاون مع مركز الدفاع عن حقوق الطفل والمرأة، محاضرة بتاريخ 25 جانفي 2007م بعنوان "قانون الأسرة الجديد" للمحاضرة نادية آيت زاي عن وضعية حقوق المرأة والطفل بالمجتمع الجزائري، وقد دافعت بشدة عن قانون الأسرة الجديد.

بمناسبة شهر التراث، أقيم معرض آخر شهر أفريل 2009م، وعُرضت فيه صور فوتوغرافية قديمة لمنطقة غرداية.

نظم يوم في 16 أفريل سنة 2009م المركز محاضرة بعنوان: "الأمير عبد القادر: حقوق الإنسان وحوار الديانات" من تقديم الأسقف السابق في الجزائر العاصمة Henri Teissier.

وفي الفترة الممتدة ما بين 18إلى 21 أفريل 2009م، تمَّ تنظيم عرض شريط بعنوان "نظرة إلى مزاب الأمس" وذلك بعرض فيلم: "Lumières du M'zab" بجزأيه.

وبالتعاون مع ديوان حماية سهل وادي مزاب وترقيته، وجمعية الترشيد السياحي بغرداية، نظم المركز ندوة علمية بعنوان "الوضعية الحالية للغة المزابية"، نشطها الباحث في الليسانيات Arne Kirchner.

1) مكتبة المركز:

توجد بالمركز مكتبة متنوعة المراجع، وُضعت تحت تصرف الطلبة والباحثين، تضم جناحين مستقلين عن بعضهما:

أ) مكتبة الوثائق والبحث:

تضم هذه المكتبة وثائق مختلفة بعضها مُحرر من طرف الآباء البيض، على شكل تقارير وشهادات، وكتبًا ومؤلفات خاصة بالمناطق الصحراوية عامة، وبمزاب على وجه الخصوص، إذ يغلب عليها الجانب التاريخي، ويعكس هذا اهتمام الآباء البيض بالعمق التاريخي للمنطقة، كما نجد مؤلفات أخرى عن الأديان، والجغرافيا، والجيولوجيا، والفلسفة، وعلم الاجتماع، وعلم النفس، وعلم اللسانيات، إضافة للفنون، والآداب، والعلوم التكنولوجية، والاقتصاد، ومجلات علمية، وثقافية،

أغلبها باللغة الفرنسية، والقليل منها باللغة العربية، أو لغات أخرى، غير أنه لا يُسمح بالإعارة الخارجية نظرًا لقيمتها ونذرتها.

و بهذا الجناح أيضًا، مجموعة كبيرة من الصور الفوتوغرافية القديمة والنادرة، التقطها الآباء البيض لمناطق مختلفة من الجزائر خلال زياراتهم لها.

ب) مكتبة المراجع القابلة للإعارة الخارجية:

يضم هذا الجناح كتبًا متنوعة في مختلف التخصصات؛ كعلم الاجتماع، وعلم النفس، والحقوق، ، التاريخ والجغرافيا، إضافة لكتب الدعم المدرسي، والروايات، وبعض المجلات، والجرائد، ومعظمها باللغة الفرنسية، والبعض الآخر مكتوب بلغات أخرى، وما يميز هذا الجناح عن سابقه، هو السماح للمنخرطين بالإعارة الخارجية للمراجع المختلفة، إذ على الفرد الراغب في الانخراط في كلا الجناحين، يدفع مبلغ ألف دينار جزائري (1000دج) سنويًا للعامل، وخمسمائة دينار جزائري (500دج) سنويًا لغير العامل والطالب، فتُصنع له بطاقة خاصة، وبموجبها يصبح له الحق في إعارة أي مرجع شاء، على ألاّ تطول مدة الإعارة عن الشهر الواحد، وبالرغم من توفر مختلف المراجع في كلا الجناحين، ورمزية ثمن الانخراط، واعتقاد الآباء البيض أن المركز يشهد تزايدًا معتبرًا لعدد المنخرطين في السنوات الأخيرة، مع افتتاح المركز الجامعي لغرداية، إلاّ أنّ الإقبال على الانخراط لا يزال متواضعًا حسب اعتقادنا، بل يشهد تراجعًا في أعداد المنخرطين منذ 2006م، وهذا ما يبينه الجدول التالي:

الجدول رقم (04): يبين عدد المنخرطين في مكتبة المركز بين سنتي 2006 و2009.

المنخرطين في المكتبة / المواسم الدراسية	المنخرطين في المكتبة
موسم 2006- 2007	370
موسم 2007- 2008	335
موسم 2008- 2009	223

2) العملية التعليمية بالمركز:

اهتم الآباء البيض بالعملية التعليمية منذ أن وطأت أقدامهم أرض هذه المنطقة، وقد سبق الحديث عن المراحل التي مرت بها العملية التعليمية، ولا يزال الاهتمام بهذا الجانب قائمًا، إذ أنهم يشرفون حاليًا في المركز الثقافي للوثائق الصحراوية منذ إعادة افتتاحه سنة 1998م، على تقديم دروس في اللغات الأجنبية، كاللغة الفرنسية، والإنجليزية، ويتم التسجيل في بداية كل سنة دراسية، بمبلغ رمزي للعامل يقدر بألف دينار (1000دج) سنويًا، بينما يدفع غير العامل والطالب نصف المبلغ (500دج) سنويًا، وبهذا التسجيل يصبح المتعلم منخرطًا في مكتبة المركز بدون دفع مبلغ الانخراط فيها، وبعد الانتهاء من عملية التسجيل يقوم المشرفون على العملية التعليمية باختبار المسجلين قصد تصنيفهم ضمن المستويات الثلاث وحسب اللغة التي يرغبون تعلمها، وقد تمَّ هذه السنة إلغاء المستوى الثالث، فأصبح بالمركز مستويين فقط، وبالمقابل أُضيف تعلم اللغة الألمانية موسم 2007- 2008، وتعويضها باللغة الإسبانية منتصف الموسم الحالي.

ولقد كان المجال سابقًا مفتوحًا لطلبة السنة الثالثة ثانوي، للتسجيل وتعلم اللغات الأجنبية، ونظرًا للطلبات الكثيرة ونقص المعلمين والخوف من الاكتظاظ تمَّ في هذه السنة إلغاء تسجيلهم، والاكتفاء بالمتعلمين "البالغين" فقط، وتبين الجداول التالي إحصائيات المتعلمين في المركز منذ الموسم الدراسي: 2006- 2007.

الجدول رقم (05): إحصائيات المتعلمين في المركز لبعض السنوات الدراسية (أرشيف مركز الوثائق الصحراوية، غير مصنف)

السنوات الدراسية	اللغات المُدرّسة	عدد الطلبة البالغين	عدد طلبة النهائي	المجموع	عدد المعلمين
2006-2007	الفرنسية	113	75	188	5
	الانجليزية	-	120	120	1
	المجموع	113	195	308	6
2007-2008	الفرنسية	140	175	315	5
	الانجليزية	40	35	75	1
	الألمانية	00	20	20	1
	المجموع	180	230	410	7
2008-2009	الفرنسية	120	00	120	2
	الانجليزية	162	00	162	2
	الاسبانية	35	00	35	1
	المجموع	317	00	317	5

المراجع:

- مقابلة مع الأب Mikel Larburu يوم : 25 أفريل 2009، بمركز الوثائق الصحراوية بغرداية.
- وثيقة مكتوبة بالآلة الراقنة تحمل رقم 2038، موجودة بمكتبة الأستاذ: عبد الرحمان حوّاش بغرداية معنونة بـ: Témoignage de la sœur Josephine
- الأرشيف غير المصنف بمكتبة البحوث بالمركز الثقافي للوثائق الصحراوية، غرداية. مكتوب على علبة الأرشيف: Ghardaia, école des pères blancs 1884-1976
- مقابلة مع الأخت Gertrud Christen يوم 10 ديسمبر 2008، بمركز الوثائق الصحراوية بغرداية.
- مقابلة مع أسقف الأغواط الأب: كلود روClaud Rault، يوم 01 أفريل 2009 بمركز الثقافي للوثائق الصحراوية بغرداية، وهو مقر الأسقفية.
- مقابلة مع ابنه غناي يحي، مدير مدرسة ابتدائية، يوم 13 مارس 2009، بمكتبه في المدرسة ببني يزقن.
- مقابلة مسجلة مع الأب فيليكس تيليشياFélix Tellechea، حصة إذاعية، حواضر بلادي، إذاعة غرداية يوم: 14 جوان 2008.
- خديجة بقطاش، الحركة التبشيرية في الجزائر1830- 1871، منشورات دحلب، الجزائر 1992.
- حمو محمد عيسى النوري، دور الميزابين في تاريخ الجزائر، ج1، دار الكروان، باريس، 1984.
- حصلنا على الإحصائيات من المشرف العام على المركز الثقافي للوثائق الصحراوية الأب Krzysztof Stolarski

- بن تركي رابح، جهود الجزائر في تعريب التعليم العام والتقني والجامعي 1962- 1984، مجلة الثقافة، العدد: 91، فيفري 1986، الجزائر.
- الحاج سعيد يوسف بن بكير، تاريخ بني ميزاب: دراسة اجتماعية واقتصادية وسياسية، المطبعة العربية، غرداية، الجزائر، ط2، 2006.
- أسعد السكّاف، الآباء البيض: جمعية مرسلي إفريقيا، في: موسوعة الأديان، دار النفائس، ط4، بيروت، 2007.
- أجرون.ش.ر، المجتمع الجزائري في مخبر الإيديولوجية الكولونيالية، تر: ولد خليفة محمد العربي، منشورات ثالة، الجزائر، 2002
-Joseph Cuoq, Lavigerie, les pères blancs et les Musulmans Maghrébins, Société des Missionnaires d'Afrique, Rome, 1986.
- Henri Thissier, Histoire des Chrétiens d'Afrique du Nord, (Libye. Tunisie. Algérie. Maroc), Edition Desclée, France 1991
- Michel Lelong. P.B, Le Sahara Aux Cents Visages, Edition ALSATIA, 1945, France.
- Michel Gagnon et al, , Aperçu sur l'histoire de la mission au Sahara, Fascicule 1, Laghouat (Algerie), 2000.
- Le père Parmentier, Le père Parmentier, Les écoles, Revue grands lacs, Revue Mensuelle des Missionnaires d'Afrique, 53ème année, N : 5-6, 1er Mars 1937, Paris, France.
- La chronique des sœurs missionnaire de notre-dame d'Afrique: sœurs Blanche du cardinal Lavigerie, 23e année, Paris, janvier 1922.
- F. Renault, Le cardinal Lavigerie 1825-1892: L'eglise, l'Afrique et la France, édition Fayard, Paris, 1992.
- Dahbia Abrous, la Société des Missionnaires d'Afrique à l'Epreuve du Mythe Berbère kabyle- Aurès -Mzab, édition